

الفصل الثاني

عن دراسة تاريخ الفكر التربوي

موضوع هذا الكتاب « تطور الفكر التربوي » ولا نستطيع أن نتصور دراسة تطويرية دون الرجوع إلى الماضي والنمو معها إلى الحاضر . على أننا نتوقع اهتماماً أساسياً بالأفكار التربوية التي نادى بها أفراد عن قصد وعمد أو جاءت في ثنايا كتاباتهم وتشريعاتهم دون أن يضعوا لها عنواناً مميزاً .

وقد تكون معالجة تطور الفكر التربوي بأن يتحول هذا الكتاب إلى فصول يختص كل فصل منها بدراسة حياة وآراء أحد المربين أو الفلاسفة الذين أدلوا بدلوهم في التربية ومبادئها . وقد لجأ إلى هذا السبيل روبرت يوليك في كتابه « تاريخ الفكر التربوي » . ويعترف في مقدمة كتابه (١) بأن الوقت قد حان لكتابة تاريخ للفكر التربوي لا يقتصر على المفكرين الغربيين فحسب ، وما العالم الغربي إلا جزء من مدينة البشر . ثم يضيف قائلاً إن الغرب نسي في غمرة غروره وبالرغم من دسامة تراثه الفلسفي أنه لم يكن مهتماً للديانة عالمية ، وقد ظهرت ديانات في الشرق الأوسط والأقصى متخذة قارة آسيا دون قارات العالم مصدراً للديانات الكبرى ، وأن هذه الديانات قد قدمت لتربية الإنسان أضعاف ما قدمه فلاسفة الغرب .

ثم يقدم لنا يوليك المفكرين التربويين في فصول متفرقة ، فيبدأ بأفلاطون ثم أرسطو ثم بلوتارك ثم كوينتليان ثم السيد المسيح ثم ينتقل إلى الكنيسة القديمة ثم الكنيسة في العصور الوسطى ثم الحركة الإنسانية (ويتناول على الخصوص الكلاسيكيين الأوائل ولوثر وإيرازمس وطريقة الجزويت في

التربية ثم مونتاني) ، ثم يعرج يوليك بعد ذلك إلى عرض الطريقة الحديثة في التفكير (ويتناول على الخصوص فرنسيس بيكون ، ورونيه ديكرات ثم جاليليو) . ثم يتناول يوليك في الجزء الأكبر من كتابه من يطلق عليهم « جمهرة المرين » وهم كومنيوس وجون لوك وجان جاك روسو وبنجامين فرانكلين وبستالوتزي وهاربارت وفروبل وإمرسون ، ثم يختم هذه الجمهرة بجون ديوى .

وسوف يلاحظ القارئ ، أو قد يعرف سلفاً ، أن بين هذه الأسماء الفلاسفة ورجال الدين .

ولن أتبع طريقة يوليك في تقديم تاريخ الفكر التربوي في فصول يشتمل كل فصل منها على مفكر أسهم في هذا الميدان بآراء استحققت أن تتبوأ مكانها في التاريخ . وإنما سوف تكون « التربية » محوراً وركيزة في علاقتها مع الدولة ومع الفلسفة ومع الاقتصاد .

ولكن الموضوع كما بينت مرتبط كل الارتباط بالتاريخ ، ولذلك فسوف أكرس هذا الفصل للحديث عن التاريخ ودراسته ، وكيف أن الدراسة الصحية للتاريخ ، كما أتصور ، أساسية في فهمنا للتطور التاريخي للفكر التربوي ، وعن التاريخ نتناقش .

! ولو أن إنسان اليوم يهتم أشد الاهتمام بما يشغل حياته كالمواصلات والملابس وأدوات التسلية واللهو ، فهو مع ذلك أكثر حساسية بحوادث التاريخ وما سلف من الأخبار . وقد قدم المؤرخون في المائة سنة الأخيرة مادة تاريخية يمكن أن يعتمد عليها ، فهي قد خضعت لأساليب علمية في البحث ، بين الآثار فوق الأرض وتحتها ، وبين صفحات الكتب القديمة والبقايا التي ألفت أضواء على الماضي . واهتمام المؤرخين المحدثين بالماضي يمكن أن يظهر بريقه إذا عرفنا أن مؤرخاً يونانياً قديماً هو ثاكيديديس بدأ تاريخه عن الحرب البلبونيسية قائلاً إنه لم يحدث قبل عصره شيء مهم . أما مؤرخو اليوم فلديهم كلام كثير عما حدث قبل هذه الحرب من أحداث (٢ م - تطور الفكر)

في العالم وقتئذ ، في بلاد الإغريق وقبلها في مصر والصين .
ويفخر التاريخ اليوم بأن الروح والاتجاهات العلمية قد عرفت طرائقها
إليه . ولم يعد التاريخ مجرد سرد لأحداث يعتمد على الأسلوب الفني والأدبي
والتفكير الفلسفي . الموضوعية يجب أن تكون رائد كاتب التاريخ . ولكن
المؤرخ فنان في عرضه للتاريخ ، فالمؤرخون منذ هيرودوت إلى توينبي قد
اتصفوا بقدراتهم على تصوير الأحداث ... ولكن هل كانت الصور صادقة ؟
دارس التاريخ المخلص يجب في التاريخ صدقه وبعده عن الحوادث المزوقة
والتي لفها المؤلف في رداء من المغريات اللغوية ، إنما هو يجب التاريخ منزهاً
ومطهراً من الإضافات التي تهز صدقه .

على أن المؤرخ كما يقول مولر (١) يجد نفسه متأثراً بعوامل شخصية ،
ويقول « ليس هناك تاريخ نقي لم يسجل من وجهة نظر شخصية ما لصالح
شخص ما » . وفي رأيه أن كاتب التاريخ يضع نفسه في الصورة ، ثم هو
يكتب بقدر ما وصل إليه من قدر من الحقائق التاريخية ، وقد تغيب عنه
حقائق لها أهميتها القصوى . كما أنه يكتب عن بعض ما حدث لا عن كل
ما حدث . وهو الذي يقدر أيها المهم والأهم وأياها الأقل أهمية .

والتعميم في التاريخ ووضع قواعد عامة بدقة وتأکید علمي أمر غير
ممکن ، فنحن لا نستطيع أن نغزل أو نقيس القوى المتعددة المتوقعة وغير
المتوقعة التي تؤثر في الحدث التاريخي . من هذه القوى البيئة الطبيعية وضغوط
الثقافات المجاورة والمحترعات والاكتشافات وعقريات القادة والزعماء
والمؤسسات الاقتصادية والسياسية والدينية وهذه تتفاعل بعضها مع
البعض . ونتاج التفاعل ليس من السهل التنبؤ به . وإذا اعترفنا أن لكل من
هذه العوامل أهميته وأثره مضافاً إليه ما في طبيعة الأفراد من ميول واتجاهات
قابلة للتغير والتحول ، فإننا قد نستطيع القول بأن التاريخ لا يعيد نفسه . قد
تشابه الحوادث شكلاً ، ولكن اختلاف الزمان والمكان يحتم تغييراً .

ومع ذلك فالإنسان هو صانع هذه الحوادث كما أنه الكائن الوحيد الذى
كون لنفسه ثقافة . وقد بينت أن الثقافة تعنى بيئة من صنع الإنسان . وقد
ساعده على بناء ثقافته عجزه فى طفولته ، فطفولة الكائن البشرى ضعيفة
وطويلة تتيح له الفرص لتعلم ما أنجزه الكبار ممن يعيشون معه أو عاشوا فى
أزمان سابقة . بل وأحياناً فى بلاد نائية .

لكن هناك قوى غير مرئية فى هذه البيئة التى صنعها الإنسان (ثقافته)
ولهذه القوى سيطرة شديدة عليه ، بل إنها أخضعته إليها فضحى بحياته فداء
هذه القوى وتعذب وتألّم وصام وتخلص من الملذات ... وربما متحدياً بذلك
قوانين طبيعة جسمه واحتياجاته ...

ومع هذا فإن الإنسان قد خلق ثقافته ويعيش فيها محققاً بذلك نصراً لعقله
وإرادته ، وابتكر واخترع وطور ... أما القوى الخفية ذات السلطة الجبارة
فإنها تعمل من خلال أفكاره ومعتقداته . وقد يحلو لبعض الفلاسفة مثل فخته
وهيجل وكارلايل أن يروا فى العظماء من الرجال وكلاء لهذه القوى الجبارة ..
وهنا يقفز السؤال ، هل هؤلاء الرجال صنعوا التاريخ أم أن التاريخ صنعهم ؟
ولعل المشكلة الحقيقية تتبلور فى تحديد أثر هؤلاء العظماء على بيئاتهم وأثر
بيئاتهم عليهم . من الممكن الاستغناء عن بعض العظماء ، ففى رأى أنه لو
لم يكتشف كولبس أمريكا لاكتشفها غيره ، ولو لم يخترع وات القاطرة
البخارية لاخترعها غيره ؟ ؟

ومن الواجب أن يتشبع حكمتنا لما دار فى التاريخ بالتعقل ووزن الأمور ،
فلا نحكم على الأحداث والأشخاص بمعاييرنا الحاضرة ، ولذلك نتلمس
الأعدار لأرسطو عندما لم يجد غضاضة فى أن يكون فى المجتمع سادة وعبيد ،
وأن ننظر بغضب إلى حرق المسنات من النساء لأنهن اشتغلن بالسحر والشعوذة
ولعل الذين أمروا بحرقهن والذين شاهدوا عملية الحرق بفرح وتلذذ ، لعل
هؤلاء وأولئك كانوا مدفوعين بعوامل دينية أكدها جهلهم وضيق أفقهم .
ومع ذلك فلا نستطيع إلا أن نصفهم الآن بالقسوة وأن نصف غيرهم

بالتعصب الأعمى وغيرهم بالهمجية والبربرية والوحشية ... هل ننظر إلى أعمال هولوكو المدمرة وغزوات جانجيز خان الساحقة إلا بهذه الصفات ؟

ثم نتطور مع سلسلة التاريخ إلى يومنا هذا ونتطلع إلى العالم المحيط بنا ، بما فيه من توترات وتحيزات . وقد بدأ مؤرخو الغرب يممون وجوههم شطر الكنوز الفكرية التي خلفها الشرق والتي لم يلق إليها إلا اليسير من الاهتمام في الماضي . وهربرت مولر مفكر غربي له مكانته يقول (١) .. « ولعل أقيح مثال هو التعصب العنصرى .. فان بعض المؤرخين ما زالوا يرددون القول بأن الجنس الأبيض هو خالق المدينة الحديثة وأن سكان الشمال والانجلوساكسون هم أعمدة هذه المدينة .. إن هذه الفكرة البغيضة الوقحة ما زالت تجد صدى عند الكثيرين . وتجد فكرة التمييز العنصرى صدى عميقاً في عالم الانجلوساكسون ولا يقبلون مطلقاً أى إشارة للتزاوج بين أبيض وملونة أو العكس ... ولم يكن لهذه التفرقة شواهد تؤيدها عبر التاريخ .

وحيث إن معظم سكان العالم هم ممن يطلق عليهم الأمريكيون صفة الملونين وبالتالي فهم أدنى في المستوى ، فيصبح من الضروري أن نعيد القول بأن هذا الاتجاه معلن في التعصب ، ولا يتفق مطلقاً مع الديمقراطية والمسيحية ، كما لا يستند إلى أسس علمية . وليس هناك جنس نقي تمام النقاء ، ولا تمثل الاختلافات بين الأجناس إلا جزءاً صغيراً مما يرثه الفرد البشرى ... وحتى هذه الفروق الواضحة بين لون بشرة أبيض وأصفر ، ورعوس طويلة ورعوس عريضة ، وشعر مستقيم وشعر مفلقل ... كل هذه الفروق وغيرها لا قيمة تذكر لها عندما نتحدث عن البقاء . وقد أثبت التاريخ أن تمازج الأجناس تمخض عن عصور ذهبية . ولم نعرف أن جنساً واحداً قاد المدينة عبر عصورها ، فكل الأجناس كانت قادرة على التقدم والتطور .

ومن أصناف التحيز والتعصب ، القوميات والأديان . خير في أن يعترف ويفخر الفرد بقوميته وديانته ولكن ليس من الخير أن يحارب البقاء مع

قوميات وديانات أخرى . من السفه أن نحقر معتقدات الغير ، ولن نقبل أن يسخر أحد من معتقداتنا وديننا . خير كثير في أن نأخذ مما عند الغير ما يتناسب مع معتقداتنا وأن نقبله بين ظهرائنا أخاً في البشرية إذا عرف هو نفسه معنى الأخوة فلم يهدنا في آمالنا ومعتقداتنا وأرزاقنا . ومن الخير الكثير أن يتسع الأفق وأن نرى أنفسنا جزءاً في عالم تتأثر به ونؤثر فيه . وفي هذا الصدد يحدثنا المؤرخ الكبير توينبي فيقص عن الامبراطور بابور الذي تربع على عرش إمبراطورية الهند حوالي عام ١٥٠٠ م ، وكان واحداً من الأتراك الذين ركبوا للغزو والفتح ومدوا سلطانهم من منغوليا في الشرق إلى الجزائر في الغرب ، وسيطروا على معظم العالم المتمددين وقتلوا الصين . وعرف بابور ، كرجل مثقف عالم ، أن فئة من الناس اسمهم الفرنجة البرابرة قد جاءوا منذ مدة إلى الأرض المقدسة ثم طردوا منها ، وكان يجيئهم مهدداً للمدينة . وعلم أن هؤلاء الكفرة ما زالوا يعيشون في شبه جزيرة ممتدة من آسيا واسمها أوربا . ولم يستحق هؤلاء الفرنجة البرابرة منه أى اهتمام فلم يذكرهم في كتاباته ، كما أنه لم يدر أنهم وصلوا في بعض المراكب إلى شواطئ الهند ونزلوا البر وأقاموا في أماكن متفرقة ... ولم يكن يتصور أن هؤلاء البرابرة سوف يسيطرون على معظم العالم المتمددين ... ومن بينه إمبراطوريته هو .

ثم يذكر شيخ المؤرخين توينبي أنه حدث بعد ثلاثمائة سنة من وقت بابور أن كتب مؤرخ في كتاباته نفس المعنى ، ألا وهو تصور أن المدينة والتحضر قاصران على المكان الذي يعيش فيه الإمبراطور أو المؤرخ . والمؤرخ الذى يتحدث عنه توينبي هو الجبرتي . قال إن الجبرتي المؤرخ المصرى كتب مؤرخاً عن حوادث سنة ما أنه حدث فيها حادث خطير لم يسبق له مثيل في العالم . وهو حادث جدير بأن تعرف السنة به لأن له آثاراً سوف تهرز أركان الدنيا . وكان الحادث أن الحجاج المصريين منعوا من السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج . وكانت هذه السنة هي التى نزل فيها نابليون بونابرت أرض مصر .

لتتسع آفاق التفكير إذن ولا تقتصر على ما نادى به مفكروننا ، كما على

الغرب أن يبحث في كنوز تركتها شعوب غير غربية وسوف يجد فيها ما يذهله إن لم يكن قد وجد فعلا .

هذه الروح ، وهذا الاتجاه في معالجة التاريخ سوف يكون حديثنا عن تطور الفكر التربوي . فسوف نطرق معاً أبواب الشرق ونأخذ من مفكرى الغرب ونقيم آراء المفكرين العرب معطين كل ذى حق حقه . ومع امتزاج هذه الأفكار الشرقية والغربية نرجو أن نجد ما يساعدنا في عملنا كربين .

في ضرورة دراسة تاريخ ونظور الفكر التربوي

التربية في خدمة المجتمع . تعمل منه وله . بهذا المفهوم تصبح التربية ذات وظيفة واضحة المعالم ، ولا تسبح في فراغ لا ندرى أوله من آخره . ولذا آمن المربون بهذه الصفة الوظيفية للتربية فجدير بهم أن يتعرفوا على الأسس الاجتماعية للعملية التربوية في جانبها النظرى والعملى .

قمن بالمربي أن يلم - ولو بقدر غير غزير - بتأثير القوى الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية والصناعية ... وغيرها من القوى على السياسات التعليمية وإجراءاتها .. من المحتم على المربي الكفاء الصالح ، أن يعى الإطار الذى حدثت وتحدث فيه العملية التربوية . ليس المربي إنساناً آلياً يدق الجرس فيقف وتتحرك ساقاه وذراعاها إلى أن يصل إلى حجرة الدراسة ، وتبدأ الحصه وتنتهى بروتينيات رتيبة غطاها الملل من كثرة ترديدها . فتنهى حصه التاريخ مثلا ، وتتحرك ساقا المعلم وذراعاها إلى مكان ما .

في بعض الأقطار المتقدمة تكنولوجياً مئآت وألوف من العقول الاليكترونية وأحاديث عن الروبوت أو الإنسان الآلى . وهو (شئ مصنوع من معادن وغيرها) ولكن المهم أنه مبرمج . أى يحوى في داخله أطوالا هائلة من أسلاك وصمامات ولفافات ترانسيستورية دقيقة الصنع ، وهذه كلها تغذت ببرامج ومناهج ومعلومات أتاحت لهذا (الشئ) إمكانية الإجابة عن الأسئلة وحل مشاكل ، بل وتعليم الغير على نهج معد سابقاً ، ناس غذوا هذا الإنسان الآلى بمعلومات ينقلها كما هى في أمانة نادرة ودقة مذهلة !!

المدرس الكفاء أسمى وأجل وأثمن من مجرد أمين على نقل معلومات والتأكد من أن تلاميذه حفظوها على ظهر القلب . هو مشكل للعقول ومكون للانجازات ومعدل للسلوك . وهو صانع أجيال المستقبل .

الجيل الصاعد محتاج إلى جانب المادة العلمية إلى قيم واتجاهات وبناء جسمي سليم . ويمكن ببساطة يسيرة الحصول على المادة العلمية الصحيحة (نسبياً) إذا كانت الكتب المدرسية المقررة صحيحة . والبناء الجسمي السليم مسألة تتصل بالغذاء والعوامل الصحية ، ودور المدرس هنا محدود . ولكن دوره في تكوين وزرع القيم والاتجاهات هائل هادر .

هنا يحق لنا القول إن الإلمام بالعوامل المؤثرة على العملية التربوية كما كانت وكما هي الآن ، وكما ستكون في المستقبل أمر حتمي إذا كان المسئولون عن التربية في مجتمع ما جادين بكل الإخلاص في تنشئة سليمة للأجيال الصاعدة . ولكي يفهم ويعرف المعلم كنه وطبيعة العملية التربوية التي يشترك فيها اليوم أو سيشارك فيها مستقبلاً ، عليه أن يتطلع دارساً ومستطلعاً إلى الدرب الذي سارت فيه .

إن موقف الطفل في الفصل اليوم إزاء (أمر) يصدره المدرس وطبيعة استجابة الطفل له تحمل في طبائها تراثاً ماضياً قد يمتد إلى مئات السنين . لم هذا السكون الخيم على حجرة الدراسة ؟ لم هذا الاعتراض الصارخ من تلميذ على قول قاله المدرس وبين الاثنين اختلاف في وجهة النظر ؟ أرأيت حضرة الأستاذ ناظر المدرسة وهو يتلصص سائراً في خطى خفيفة بجورا حائط يفصل الفصول عن ممر تهادى عليه أقدام سيادته لتلتقط أذناه ما يدور داخل الفصول ؟ ثم نسمع عن موجه جمع المدرسين وعرض عليهم مشكلة تاركاً لهم حلها دون أن يفرض عليهم إرادته ... ونسمع . ونسمع ...

لكل من هذه التصرفات أو المواقف أو الاتجاهات أو القيم جذور في الماضي أفصححت عن نفسها في الحاضر ، وستضفي تأثيراتها في المستقبل . بل إن الموقف التربوي في علاقة مدرس بتلميذه ، أو في فهمه للمنهج المقرر ،

أو في علاقته برئيسه أو في إعداده لدرسه .. قد أثار في الماضي جدلاً ربما استمر مئات السنين وأثار مناقشات حامية جدير بالمعلم أن يعرف شيئاً عنها ؛ لأنه يتعامل مع نفوس وعقول بشرية .

هو إنسان يتعامل مع أخيه الإنسان ويستخدم مادة علمية ووسائل تعليمية . وفي تعامل المعلم مع التلاميذ قد يسلك واحداً من مسالك شتى ، وفي محاولته أن (يعرف) التلاميذ المادة العلمية قد يتخير طريقة من بين طرق عدة . بل إن موقفه هو إزاء هذه المادة تكونه فلسفته واتجاهاته .

المدرس أجل وأسمى في إعداده وتربيته من الكثيرين من أصحاب الحرف أو المهن العالية ؛ ذلك أن اتباع أسلوب التقليد والمحاكاة يوقف عملية التقدم التربوي ، وقد وقفت في مجتمعنا أزماناً طويلة وأكاد أقول إنها اليوم تتحرك ببطء شديد هو أقرب إلى التوقف منه إلى الحركة التقدمية في عصر يعيش على عجالات تجرى . أقول حركة بطيئة . وفي هذا خير طفيف يحتمل أن يزيد إذا زادت السرعة تدريجياً ويجب أن تزيد وإلا أصبحت التربية اليوم وكأنها جزء من تاريخ التربية ما زال يعيش حياً . التاريخ يعنى الماضي :

على المشتغل بالتربية أن يلم بفلسفاتها المختلفة التي أخرجتها عقول شرقية وغربية كما عليه أن يدرس النظريات التربوية بما فيها من التقليدية ، والماهوية (الجوهرية) والتقدمية . ولعل في دراسة للفلسفات والنظريات ما يعينه على تكوين وجهة نظر خاصة به ، مؤمن بها ويجدواها وفاعليتها . وقد يعينه هذا الموقف وذلك الفهم على صقل عمله التربوي .

ودراسة المرابي لتطور الفكر التربوي ستوقفه على مجهودات ومحاولات أفراد وجماعات سابقين ، وما أصابوه من نجاح أو فشل . ومن تعرف أسباب وعوامل النجاح والفشل يستخلص المرابي حصيلة ثرية قد تنقذ أفراداً وجماعات من فقدان جهد ووقت ومال :

نحن لا يمكننا أن نتجاهل آلاف السنوات من الجهد التربوي في مختلف البقاع ومختلف الفلسفات . مجهودات شكلت عقولنا اليوم ، وبسطت أماننا

أفكاراً نفذت وأخرجت نتائج يتدبرها الجادون من رجال التربية .. خذ مثلاً:
- ماذا يحدث للإنسان وللمجتمع وللثقافة عندما تهيمن العسكرية على كافة جوانب العملية التربوية ؟ حدث هذا في أسبرطة منذ حوالي أربعة وعشرين قرناً
- ماذا يحدث عندما تتشكل وتنكيف التربية تبعاً للنظام الطبقي (أو الطائفي) بدلا من تكيفها تبعاً للقدرات والإمكانات ؟ حدث هذا في الهند عبر قرون طويلة .

- ماذا يحدث عندما توجه التربية وتعبأ بإمكانياتها لبناء إمبراطورية والإبقاء عليها رديحاً طويلاً ؟ حدث هذا في إمبراطوريتي الفرس والرومان .
- ماذا يحدث عندما تأخذ التربية نمطاً لا عقلياً ؟ حدث هذا في أوروبا في العصور الوسطى على أيدي الرهبان في الأديرة .

- ماذا يحدث عندما يفهم مدرك التربية الديمقراطية على أنه يخص جماعة مميزة قليلة العدد في المجتمع . هم الأرسطوقراطية ؟ حدث هذا في أثينا الأخرينية .
- ماذا يحدث عندما لا تتدخل القوى الدينية أو العقائد المسبقة الراضحة في البحث العلمي وفي الفلسفة ؟ حدث هذا عند مسلمي القرنين العاشر والحادي عشر .

- ماذا يحدث عندما تتحكم وتهيمن الأطر العقائدية المسبقة على الدراسة والبحث ؟ حدث هذا في المجتمع الغربي في العصور الوسطى .
- ماذا يحدث عندما تمجد التربية وتهتم بالكياسة والخلق الاجتماعيين على حساب الجانبين المهني والعقلي ؟ حدث هذا زمن الإقطاع في تربية الفرسان في أوروبا في العصور الوسطى .

- ماذا يحدث عندما تسيطر طوائف دينية وتضفي اهتماماتها الخاصة على العملية التربوية ؟ حدث هذا بصورة واضحة في أمريكا في القرن الثامن عشر قبل ثورتها .

- ماذا يحدث عندما تصبح التربية أداة للث العقائدي السياسي ، وسلاحاً ماضياً فاعلاً في أيدي المهيمنين على الحكم ؟ حدث هذا في ألمانيا النازية .

— ماذا يحدث عندما تصبح التربية أداة الثورة الاجتماعية — الثقافية ؟
حدث هذا في روسيا وفي الصين الحديثة .

— ماذا يحدث عندما تصبح التربية أداة تنوير للمواطنين والخروج بهم بعيداً عن ظلام الجهالة ؟ حدث هذا في الدانمرك :

— ماذا يحدث عندما تصبح التربية القوة والركيزة التي تبنى بها الدولة
كيانها من جديد ؟ حدث هذا في اليابان الحديثة .

عشرات بل مئات الأمثلة مأخوذة من خبرات البشر في تراكمها المتزايد مع طي السنين ، تفيدنا كربين في عملنا داخل حجرة الدراسة إلى التخطيط الشامل للسياسة التعليمية للدولة . ولعل الأمم النامية في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وغيرها في أمس الحاجة إلى الدراسة الواعية الفاحصة لهذه الخبرات البشرية .

ويستطيع دارس الفكر التربوي وضع أصابعه على العلاقة بين الجانب النظرى والجانب العملى فى العملية التربوية . سوف تنكشف له مفاهيم عديدة ومفيدة تساعده على رؤية أسس الجانب العملى التربوى من ثنايا دراسته للنظريات التربوية والأفكار الاجتماعية . وعندما يجلس المربي فى حضرة المعلمين العظام والكبار من المربين من الشرق ومن الغرب ، كسقراط وأفلاطون وبوذا وأرسطو وسانت توما الأكويني والغزالي ورفاعة الطهطاوى وروسو وفروبل وديوى وماكارينكو وغيرهم — عندما يجلس إليهم ويعرف عن مجهوداتهم وإنجازاتهم ، تتفتح له آفاق واسعة ، تسمو به إلى أعلى من مجرد تحفيظ جدول الضرب ، أو التأكد من أن أخوات كان لم تنقص منهن أخت . لا يقصد المؤلف أن يعيش المعلم فى برج عال عاجى ، وإنما يرجو له أن يقف بقدميه على أرض صلبة أمام تلاميذه ورأسه أعلى بكثير من سقف حجرة الدراسة ، شاهقة ناظرة إلى مختلف الآراء والاتجاهات ، ومتخيرة منها ما يحسن الواقع الذى يقف عليه بقدميه .

طفل هذا الذى يحيا حاضره ولا يعرف ماضيه ، طفل فى علمه وعمله

وقاصر فيهما ، ونظرته قد لا تمتد إلى أبعد من المكان الذي يقف عليه ،
وبالتالى فان تأثيره فيمن حوله ضئيل عليل ، لأن شيئاً هاماً ينقصه .
ولكى نقدر ما نحن فيه من تقدم لا بد أن نعرف كم من الجهد بذل في
الماضى أوصلنا إلى ما نحن عليه اليوم ، ثم نتطلع إلى المستقبل ، ولعل لنا دوراً
في بنائه ، فلا يكفى ولا يجب أن نأكل ثماراً من شجرة زرعتها السابقون
دون أن نزرع نحن شجراً يثمر للقادمين .

وأنت تجلس إلى الفلاسفة والمربين من الشرق والغرب سوف تحس بمعنى
وحدة البشر وأخوتهم ، وسوف تلمس كيف أن نتاج العقل البشرى لم توقفه
حدود دولية خطها الإنسان ، أو محيطات واسعة أو جبال شاهقة . تحطت
الأفكار كل هذا وذاك ، وكانت وما تزال وستظل أقوى من الزمن في
بقائها وخلودها وتأثيرها .

ومن يدري ؟ فربما أنت أيها القارئ قد تطلع علينا باسهام يضاف إلى
رصيد الفكر التربوى الذى نبدأ رحلتنا معه بادئين من العصور القديمة .